ثانياً: الخطبة الجنائزية لبريكليس وبلورة مفهوم الديموقراطية والمواطنة الأثينية :

لقد كان من حسن حظ الديمقراطية الأثينية أن سجل لنا المؤرخ ثيوكيديدس ببراعة منقطعة النظير خطبة الرثاء الشهيرة التي ألقاها بريكليس في الاحتفال بذكرى الشهداء الأول أولئك الذين ماتوا في ساحة المعركة في العام الأول من حرب أثينا وإسبرطة. إن هذه الخطبة الشهيرة هي أوضح ما يكشف عن مدى عمق الانتماء الوطني لأثينا من قبل زعيمها الكبير ، ومدى فخره واعتزازه بالانتماء إلى أثينا والأثينيين. إنها الدرس الأمثل في الكشف عن الديمقراطية ومعنى المواطنة.

لقد بدأ بريكليس بالحديث عن عظمة الأجداد والثناء على ما بذلوه من جهد وتضحيات في سبيل مجد أثينا ، فأوضح في أرقى بيان أن الوطنية هي أسمى شرف للأثينيين فقد كان الجميع يتفانون في حبها والتضحية من أجلها لقد كانوا يفضلونها على أموالهم وأسرهم فما قيمة المال أو الحياة بدون تمتع أثينا الوطن بكرامتها وعلو شأنها.

إن هذا التقدير لقيمة " المواطنة " في أثينا كان في حقيقة الأمر نابعا من المساواة والتمتع بكل حقوق المواطنة بالمشاركة البناءة في حياة المدينة السياسية بكل حرية وبدون أدنى قيود وعلى أساس متين من تكافؤ الفرص وتبادل المواقع القيادية والمشاركة في كل الوظائف حسب قدرات الفرد ومؤهلاته وليس بأي معيار آخر !

وقد عبر بريكليس عن كل ذلك خير تعبير حينما قال في تلك الخطبة بعد المقدمة المناسبة للاحتفاء بالشهداء : " إن نظام الحكم عندنا لا يتعارض ولا يتنافس مع أنظمة الحكم عند الآخرين. نحن لا نقلد جيراننا ، بل نحن مثال يحتذى. نعم ، نحن نسمى نظام الحكم عندنا الديمقراطية لأن الإدارة هي في أيدى جماعة من الناس لا في أيدي قلة منهم. وها هو القانون يضمن العدالة للناس في دعاويهم الخاصة على قدم المساواة ، ولكن هذا لا يمنع أن يميز امرؤ على آخر بالنسبة إلى

الفضائل والسجايا التي يتحلى بها ، فإنه عندما تبرز فضائل الفرد فإن الناس يؤثرون أن ينتخبوه إلى المناصب العامة الرفيعة لا إنعاما أو تصدقا عليه ، بل مكافأة له على مزاياه الخلقية. . [18] ".

لقد حدد بريكليس هنا معنى الديمقراطية ، فهي نظام الحكم الذي يجعل إدارة الدولة في يد جماعة من الناس وليس في أيدي قلة منهم. وهي نظام الحكم الذي يقوم على دستور يحقق القانون فيه العدالة للجميع ؛ فالقانون في ظل الديمقراطية " يضمن العدالة للناس في دعاويهم الخاصة على قدم المساواة ". فالجميع إذن في ظلها متساوون أمام القانون.

كما رد بريكليس في تلك الفقرة على انتقاد يمكن أن يوجه لهذه المساواة وهذه المشاركة في الحكم ، ذلك النقد الذي يشير أصحابه إلى أن بريكليس نفسه قد أعيد انتخابه للمناصب الرفيعة لا إنعاما أو تصدقا عليه ، بل "مكافأة له على مزاياه الخلقية ".

وحينما أحس بريكليس أن هذا الرد ليس كافيا في توضيح مزايا الديمقراطية وضرورة تمتع الجميع بالمشاركة السياسية في ظلها ، أردف قائلا :

" إن الفقر ليس حاجزاً ، بل يستطيع المرء مهما يكن وضيعاً أن يخدم وطنه. وليست الحياة العامة احتكارا أو وقفا على فئة من الناس [19]»

وفي هذا ما فيه من تأكيد على أن الديمقراطية الأثينية كانت تتيح المشاركة للجميع دون تمييز بين فقير وغنى أو بين أمير ووضيع.

وكم كان جميلا من بريكليس أن ينتقل من هذا المعنى السياسي للديمقراطية إلى معناها الاجتماعي و تأثيرها على العلاقة بين الأفراد الذين يعيشون في ظل مجتمع ديمقراطي وعلى معاملاتهم اليومية. لقد قال بريكليس :

" إننا في معاملاتنا اليومية لا يخامر الواحد منا شك في أمانة الآخر وصدقه ولسنا نغضب من جيراننا إذا ما تصرفوا بالطريقة التي

يرتضونها لأنفسهم ولسنا نزدرى الرجل الذي لا يروق لنـــا وإن كـــان رجلا لا ضرر منه. وبالرغم من أن تصرفنا في حياتنا الخاصة تـــصرف لا عنف فيه ولا قسوة فإن روح الاحتـــرام تتخلـــل أعمالنـــا العامـــة. واحترامنا السلطة والقانون يمنعنا من أن نتصرف تصرفا خاطئا و ذلك لأننا ننظر بعين الاحترام لحماة المظلومين وللقوانين غير المكتوبة التي إذا تجاوزها المرء جر على نفسه نقمة الرأي العام [20].

وأعتقد أنه لا يوجد أروع من ذلك الذي قاله بريكليس تعبيرا عـــن مغـــزى الديمقراطية السياسية وأثرها على الواقع الاجتماعي للناس في ظلها. فما أروع أن يستخدم بريكليس هنا تعبيرا مثل " إننا في معاملاتنا اليومية لا يخامر الواحد منـــا شك في أمانة الآخر وصدقه. . " فهو يستخدم نون الجماعة ولا يميز بينه كـــزعيم وبين غيره من أفراد أثينا ، وهو يتحدث عن الصدق والأمانة كقيم تسود بين هؤلاء الأفراد ولا يشك أي منهما في عدم توفرهما في الآخر. وكم كان توصـــيفه لأثـــر الديمقراطية عميقا حينما أكد على " أننا لا نزدرى الرجل الذي لا يـــروق لنـــا. . ولسنا نغضب من جيراننا إذا ما تصرفوا بالطريقة التي يرتضونها لأنفسهم .. " .

إن التصرف بحرية يتساوى فيها الجميع تفرض على الجميع أن يترك كل واحد منهم للآخر حرية القول وحرية الفعل كما يحلو له دون أن يضيق بقوله أو بفعله.

إن هذه الحرية التي يتمتع بها الجميع دون مضايقة أو انزعاج مـــن بعـــضهم إزاء بعضهم الآخر ليست مطلقة بالطبع لأنها تتم في ظل احترام الجميـــع " للـــسلطة والقانون " ، ذلك الاحترام الذي يجعلهم يتصرفون التصرف الصحيح ويمـــنعهم مـــن أي تصرف خاطئ. وحتى إذا ما حدثت تلك التصرفات الخاطئة وتعدى بعضهم على حقوق الآخر وحرياته فإن الجميع يلتزمون بالقانون الذي ســـيحمى حينئـــذ المظلـــوم ويأخذ له حقه المهضوم ، فضلا عن أن الجميع لا يكتفي باحترام القانون المكتـــوب ، بل أيضا هناك القوانين غير المكتوبة " التي إذا تجاوزها المرء جر على نفسه نقمـــة الرأي العام ". فاحترام التقاليد والقوانين الطبيعية والأعراف مسألة يقـــدرها الجميـــع

حتى يكسبوا احترام " الرأي العام ". وكم كان جميلا من بريكليس أيضا أن يضيف إلى هذه الآثار الاجتماعية للديمقراطية آثارا دينية واقتصادية وترفيهية يتمتع بها الناس في ظل الديمقراطية الأثينية. انظر إلى قول بريكليس في هذا الإطار :

" إننا لم نغفل أمر الترويح عن أنفسنا التعبة المرهقة ، وذلك أننا وفرنا سبل الترفيه. فعندنا ألعاب رياضية منتظمة ، وأعياد نقدم فيها التقدمات والقرابين في أثناء السنة ، وبيوتنا جميلة أنيقة. هذه البهجة المستمدة من ما حولنا من مظاهر الجمال تنفى عن أرواحنا السأم. وبسبب عظمة مدينتنا فإن فاكهة الأرض وثمارها تجد سبيلها إلى أسواقنا فنستمتع بمنتجات البلدان الأجنبية كما نستمتع بإنتاج أرضنا [21]".

إن جدية الحياة الأثينية لا تتعارض مع استمتاعهم بكل مباهج الحياة ، فهم متدينون يحرصون على أداء واجباتهم الدينية ، ويمارسون الألعاب الرياضية بانتظام ، ويستمتعون بكل مظاهر الجمال في مدينتهم كما يستمتعون بكل ما تنتجها أرضها من خيرات مادية.

وفي نفس السياق يتحدث بريكليس عن أن كل هذه المتع ووجوه الرخاء التي يعيشها الأثينيون ، لا تتعارض مع الجدية في أداء التدريبات العسكرية والاستعداد الدائم لمواجهة الأعداء. وهذه الجدية التي لا تتعارض مع الاستمتاع بالحياة تبدو في النظام التربوي الذي اتبعه الأثينيون في ظل نظامهم الديمقراطي الذي أثر بدوره على نظامهم التربوي " ففي شئون التربية وتنشئة الجيل فترانا نختلف عن الآخرين ؛ فبينما تراهم يحملون صغارهم مشقة التمارين وعناء التدريب كي ينشأوا على الشجاعة و الإقدام تجد أننا نعيش بيسر ولين وبالرغم من هذا تجدنا أبدا على استعداد لمجابهة الأخطار التي يجابهونها بشجاعة وإقدام [22] ".

لقد كان الأثينيون فيما قال بريكليس يواجهون الأخطاء " بقلوب فرحة وبدون تدريب قاس " ، و في ذات الوقت كان هذا سر انتصاراتهم المتتالية وتكوينهم لإمبراطوريتهم إذ كانوا حينما يجد الجد و تحين ساعة الحرب تجدهم

" يبدون من الشجاعة والتجلد ما يبديه الآخرون الذين قاسوا ما قاسوه في ترقبهم الألم والمحن [23] ".

ولقد كان جميلا أيضا من بريكليس أن يفاخر بأن الديمقراطية كان لها الأثر الأكبر في حرية الفكر ولمعان مواهب الإبداع العقلي عند الأثينيين. فقد كان من أروع ما قاله بريكليس في تلك الخطبة الشهيرة :

" إننا نعنى بتدريب العقل ولكننا لا نفقد الرجولة في أجسادنا .. وإذا كان المبدعون الموهوبون منا قلة قليلة فإننا في أكثرنا جماعة تحسن الحكم في الأمور السياسية. ففي يقيننا أن العائق الأول الذي يحول دون العمل المجدي ليس الجدل والمناقشة بل نقص في المعرفة. ولذا نؤمن أن الجدل و المناقشة توفر لنا تلك المعرفة الضرورية للعمل المجدي ، لأننا شعب نتميز بحسن التفكير قبل الإقدام على العمل. [24]".

لقد أكد بريكليس في هذه الفقرة البديعة أن الديمقراطية صنو حرية الفكر والإبداع ، وأن الإبداع لا ينمو إلا في ظل حرية النقاش والجدل فهما أساس المعرفة ، والمعرفة أساس العمل المجدي. لقد برهن بريكليس في هذه الفقرة على أن عظمة الديمقراطية تكمن في إتاحتها الفرصة للجميع ليحسنوا التفكير حتى يحسنوا في النهاية العمل.

والحقيقة أن هذه الخطبة التي مجد فيها بريكليس الديمقراطية الأثينية وكشف عن خصائصها وآثارها على كافة صور الحياة الأثينية ، كانت أشبه بملحمة تمجيد للديمقراطية وتدشين لعظمتها ليس فقط في أثينا القديمة ، بل في كل زمان وفي أي مكان تطبق فيه بصورتها الأرقى التي شهدتها أثينا في عهد بريكليس.

ومع ذلك فلم تسلم الديمقراطية الأثينية من النقد ، كما لم تنجح كل هذه المزايا التي أعطتها لأثينا و جعلتها تتمتع بهذه المكانة الفريدة في التاريخ القديم في أن تصنع فلاسفتها الكبار (أقصد فلاسفة أثينا) بأنها النظام الأفضل ؛ فقد قال عنها أفلاطون " أنها تنشر نوعا من المساواة بين المتساوين وغير المتساوين على

حد سواء ". وهذا نفس ما قاله ايزوقراط الذي ميز بين نوعين من المساواة ؛ إحداهما تمنح للجميع بقدر واحد والثانية تعطى كلا ما يناسبه. وقد ادعى أنه في أيام الماضي الجميل نبذ الأثينيون المساواة التي تساوى بين الصالح والطالح في نفس الحقوق لعدم عدالتها واختاروا " تلك التي تكرم كل فرد بما يستحقه [25]".

وبالطبع فإن هذه الانتقادات وغيرها هي من صميم الحرية التي أتاحتها الديمقراطية للجميع وهي لم تؤثر في تطور النظام الديمقراطي والتزام الأثينيون بها وتقديرهم لها. وعلى أي حال فكل انتقاد وجه للديمقراطية الأثينية يمكن لأنصارها الرد عليه [26].

لقد تطور الحال على صعيد الواقع والتنظير الفلسفي بالديمقراطية من أيام بريكليس إلى أيام أرسطو ليقدم لنا الأخير الرؤية الأشمل والأدق للديمقراطية والمواطنة في ظل النظام الأثيني وغيره من الأنظمة اليونانية. فماذا كانت رؤية أرسطو للمواطنة بوجه عام ، وللمواطنة في ظل الديمقراطية بوجه خاص ؟!

ثالثاً: المواطنة والديموقراطية عند أرسطو :

لقد خصص أرسطو الكتاب الثالث من كتابه الشهير " السياسة " للبحث عن معنى " المواطنة " وشروطها وعلاقتها بأنظمة الحكم المختلفة والاختلافات بينها وادعاءاتها النسبية بتحقيق العدالة السياسية ، ويدخل أرسطو إلى دراسة مسألة المواطنة باعتبارها طريقة من طرق فهم العلاقة بين المدينة ونظام الحكم حيث تستمد المدينة هويتها الحقيقية من هؤلاء الذين يعترف بأنهم مواطنوها [27].

إن المرء في رأى أرسطو " لا يكون مواطنا بمحل الإقامة وحده لأن محل الإقامة يملكه أيضا الأجانب المقيمون والعبيد ، كذلك لا يكون المرء مواطنا بمجرد حق المداعاة لدى القضاء مدعيا أو مدعى عليه .. فمحل الإقامة والمداعاة القضائية يمكن أن يكونا لأناس ليسوا مواطنين [28]".

إذن إذا لم يكن محل الإقامة وحده كافيا ولا حتى التقاضي في ظل هذه